اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للاعلام العربي
قســـم النشــر

ص. ب ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة تلغرافياً زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوان
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U . N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى
عصمت داوستاشى



الزهراء
للإعلام
العربي

مُقَدِّمَة

آثرت أن أكتب لكم قصة إنسان فى طريقه إلى الله ، وقد بدأت القصة من الأيام الغامضة التى سبقت خلق البشرية ... ثم تعرضت لموقف أخذ العهد ، وموقف سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس . ثم تتبعت الأيام الأولى فى الجنة ..

ثم انطفأ كل شيء وآدم يهبط إلى الأرض ، انزوى بطل قصتنا فى خلايا آدم ، وظل ميتا حتى ولد ذات صباح شتائى بارد .

تتبعت بطل القصة وهو جنين فى رحم أمه ، ثم حين ولد ، ثم حين بدأ يستقبل الوعى ويكبر ..

إخترت مواقف من حياة هذا الرجل ، وهى المواقف التى كانت ترفع عنه غطاء الخيمة الترابية وتحاول إعادته إلى أصله الروحى القديم المجيد .

وأعترف : إننى استعنت بالذكريات الشخصية وبالخيال ، كما استعنت بثلاثة كتب رئيسية كنت أنقل منها فقرات كاملة فى القصة ... إن جاز أن نسميها قصة .

هذه الكتب الثلاثة هى : المثنوى المعنوى لجلال الدين الرومى ، وحكم ابن عطاء الله السكندرى التى شرحها ابن عجيبة ، والمواقف والمخاطبات لمحمد بن عبد الجبار النفرى ..

والكتب الثلاثة من الكتب البديعة فى دنيا العارفين بالله . أما كتاب جلال الدين الرومى فيضم ٢٥ ألف بيت من الشعر فى ستة مجلدات ، وقد ترجم جزءين

منه إلى العربية الأستاذ الدكتور المرحوم محمد عبد السلام كفافي ، وقد علمت أنه ترجم الجزء الثالث ثم لم يمهله الأجل لطبعه ، فبقى الكتاب فى أصوله دون طبع . وليت دارا للنشر تطبع هذا الجزء ، وليت دارا للنشر تبحث عن أستاذ يعرف الفارسية ويحب الأدب الصوفى لترجمة الأجزاء الثلاثة الباقية ؛ فهذا الكتاب من كنوز الأدب العالمى الصوفى . أما الكتاب الثالث فهو كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى ، وهو كتاب يتصور فيه مؤلفه أنه وقف بقلبه في الحضرة الإلهية فاستمع لما استمع إليه ، وكتب ما كتبه ..

ولست أعرف الآن مدى توفيقى فيما كتبته على أى حال ... إذا رضى القراء عما يقرءونه فهذا تأثير المؤلفين الثلاثة الكبار ، وإذا لم يرض القراء فهذا تقصيرى ..

نسأل الله أن يتقبل منا ، وأن يدخلنا جميعا فى رحمته ..



(١)

لم أولد بعد .

مازلت جزءا من العدم .

لا أسمع شراً ... لاأرى شراً ... لا أقول شراً ... وأيضا لاأفعل شراً . برىء كالمياه ... كالنجوم ، والشمس وزهور الحقول المعطرة ..

لم أرتكب ذنبا واحدا بعد ..

لم أولد بعد ..

لا أعرف متى أولد ، ولست أدرى ماذا يكون إحساسى عندما تقع هذه المعجزة ... معجزة تحول العدم إلى وجود ، ثم تحول هذا الوجود إلى حياة .

....

قبل بدء البدء كان الله .
لا شيء مع الله ولا شيء سواه ... استغنى بذاته عمن عداه ، وافتقر إليه كل شيء سواه ... وما كان هناك سواه ، ولا كان هناك ما عداه .

....

يفتتح القرآن الستار قبل الوجود الكوني على مشهد جليل أكبر من قدرة العقول على التصور ، ولكنه ليس أكبر من قدرة الأفئدة على الوعي . قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ [هود ٧] تشير الآية إلى زمن كان قبل خلق الزمان ..

وكان قبل خلق الأكوان ..

لا نعرف متى كان هذا ، ولا أين كان ، ولا كيف كان ... كل ما نعرفه هو ما تصوره الآية ، وهو مشهد مياه عظيمة تحمل عرش الله .

﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ .

إن « كان » هنا تعود إلى زمن كان قبل ميلاد الزمان والإنسان ... في هذا اللازمن المجهول الغامض الذى أسدل الله عليه ستائر السر ... كان الحق ولا شيء معه ..

وكان البشر جميعا قبضة في ضمير المياه التى تعلو وتهبط مع حركة السجود الخاشع تحت عرش الله ..

....

« كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

هذا حديث قدسى سنعرفه بعد آلاف السنين من الخلق ، ولكنه حديث يفتح الستار على مشيئة الله تعالى في العطاء ... روى عن الرسول أن الحق تعالى قال : « كان الإحسان هو قصدى من الخلق » .

شاء الله تعالى أن يمنح مجد معرفته لغيره ، وأن يتكرم بألوهيته على من لم يخلقهم بعد من عباده ... شاء فكان ما شاء .



(٢)

انصرفت مشيئة الله تعالى إلى الخلق .

فاض عطاؤه وفاضت رحمته على العدم . كان الكون عدما وكنت جزءا من العدم ، وكان الكون كله ظلمة وكنت جزءا من الظلمة ، ثم أنارنا ظهور أمر الحق .

أصدر الله تعالى أمره إلى العدم قال ﴿ كن ﴾ ، وهى كلمة من حرفين ، سمع العدم أمر الله تعالى رغم أنه بلا أذن ولا سمع . إستحى العدم حين كلمه الله تعالى وصار وجودا يموج بالحركة .

يقول جلال الدين الرومى : لقد همس الحق فى أذن الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها تبتسم بالعطر ،

وتحدث إلى الحجر فكان منه عقيق المنجم ، وتلا آية على الجسم فأصبح روحا ، وكلم الشمس فأضاءت بالإشراق ، ثم عاد وألقى فى سمعها بكلمة رهيبة فوقع على وجه الشمس مائة كسوف .

أى قول ألقاه الحق فى سمع السحاب فصب من أعينه الدموع ؟ وما الذى تلاه الحق على سمع الأرض فصارت مراقبة ولزمت الصمت ؟

لا أحد يدرى .

كل ما ندريه أن الموقف كان موقف عطاء إلهى شامل من العدم إلى الدخان إلى الماء ، إلى بلايين النجوم إلى قطعة الصلصال ، إلى الخلية الحية ، إلى إنسان يتلو مزامير داود فتوراة موسى فإنجيل عيسى فقرآن محمد .

وهكذا انتقلت من أحضان المياه الخاشعة إلى ظهر أبينا آدم قبل أن يخلق الله أبانا آدم ..

....

انتقلت طائعا راضيا يدفعنى الحب .

وكذلك انتقلت السماوات والأرض طائعة راضية يسوقها الحب . فى البدء كان خلق السماء والأرض .

يقول تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ [فصلت]

لا إكراه هناك .

لقد أمر الله الكون أن يكون حضورا من العدم ، طائعا أو مكرها ، هنالك سجد الكون بين يدى الطاعة ، وولد العشق يومذاك .

لا إكراه هناك ..

بنى الكون كله على الحب ، وخلق الإنسان من الحب .





(٣)

حين منحت السماء والأرض حق الاختيار بين الطاعة والإكراه ... قالتا أتينا طائعين ... هل تجىء الأشياء طائعة إلا إذا كانت عاشقة ..

تخلل الحب نسيج الكون وهو يخلق ، وولد الحب من مجرد توجه المشيئة الإلهية إلى الخلق ..

أى أنه ولد بكلمة من الله ..

بعد خلق الكون خلقت ... ذرة فى ظهر أبينا آدم حين خلق آدم ... وفى هذا العهد القديم عاينت ثلاثة مواقف :

موقف أخذ العهد على أبناء آدم بالتوحيد .

وموقف سجود الملائكة لآدم ولى ..

وموقف رفض إبليس أن يسجد لى أو لآدم ..

وكانت هذه المواقف لازمة للمعرفة الإنسانية ..

عرفت من الموقف الأول من خالقنا وربنا ..

وعرفت من الموقف الثانى من حبيبنا وظهيرنا ..

وعرفت من الموقف الثالث من عدونا على الأرض ..

....

قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا** ﴾ .

كان الموقف أجل من الوصف وأكبر من الإحاطة ... لم أكن قد ولدت بعد كجسد لأعبر عنه بالعقل أو اللسان ، كنت روحا تنتظر رداءها البشرى بعد ملايين السنين .

ورغم ذلك أرى – بعين الروح – كل تفاصيل الموقف ..

لا أراه وإنما أحسه إحساسا أقوى من الرؤية ..

كان الموقف موقف قبض وهيبة ..

خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع همسا ...

سأل رب العالمين :

□ ألست بربكم ؟!

سجدنا شهودا على ربوبيته ، وتزلزلنا من هيبة ألوهيته ، وشهدنا بلسان السجود والحال والمآل عليها ..

□ بلى شهدنا ..

اعترفت الأرواح فى الحضرة الإلهية بالتوحيد ... وأقرت بالإسلام وختم الله العهد بقوله محذرا : ﴿ **إن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ .

وهكذا لزمتنا الحجة وانعقد العهد على أبناء آدم .





(٤)

عرفت حقيقة جوهرية يوم أخذ العهد علينا ، وأدهشني أمر آخر تماما . عرفت لمن أنتمي ... عرفت عبد من أنا ... وبهذه المعرفة صرت سيدا من سادة الكون قبل أن أعرف الكون أو أخلق فيه ..

أدهشني أمر آخر ... لم أفهم معنى التحذير الإلهي من الغفلة والشرك ... لم أفهم – يومئذ – معنى أن يكون الإنسان مشركا أو غافلا عن ربه ومولاه .

سأعرف فيما بعد معنى الكلمات ..

سينزل أنبياء كثيرون لتذكير الناس بهذا العهد القديم ، وسيكون هناك تلاميذ للحقيقة يحدثون الناس عنها ..

يقول النفرى فى موقف معرفة المعارف :
أوقفنى فى معرفة المعارف وقال لى : هى الجهل الحقيقى من كل شىء بى . وقال : صفة ذلك فى قلبك وعقلك أن تشهد بسرك كل ملك وملكوت ، وكل سماء وأرض وبر وبحر ، وليل ونهار ، ونبى وملك ، وعلم ومعرفة ، وكلمات وأسماء ، وكل ما فى ذلك ، وكل ما بين ذلك يقول : ليس كمثله شىء ..

وترى قوله ليس كمثله شىء هو أقصى علمه ومنتهى معرفته .

وقال لى : إذا عرفت معرفة المعارف ، جعلت العلم دابة من دوابك ، وجعلت الكون كله طريقا من طرقاتك .

وقال لى : إذا جعلت الكون طريقا من طرقاتك لم أزودك منه ... هل رأيت زادا من طريق ؟

وقال لى : الزاد من المقر ، فإذا عرفت معرفة المعارف فمقرك عندى ، وزادك من مقرك ، ولو استضفت إليك الكون لوسعهم ..

....

يستطيع الإنسان أن يستضيف الكون لو وقف فى موقف الإسلام .

يقول النفرى : أوقفنى فى الإسلام وقال لى : هو دينى فلا تبتغ سواه فإنى لاأقبل ..

وقال لى : الإسلام هو أن تسلم لى ما أحكم لك وما أحكم عليك .

قلت : كيف أسلم لك .

قال : لا تعارضنى برأيك ، ولا تطلب على حقى عليك دليلا من قبل نفسك ، فإن نفسك لا تدلك على حقى أبداً ، ولا تلتزم حقى طوعا .





(٥)

حين قال لى لا تعارضنى برأيك .

قلت : كيف لا أعارض ؟

قال : تتبع ولا تبتدع .

قلت : كيف لا أطلب على حقك دليلا من قبل نفسى ؟

قال : إذا قلت لك إن هذا لك تقول هذا لى ، وإن قلت لك إن هذا لى تقول إن هذا لك ، فيكون أمرى لك هو مخاطبك وهو المستحق عليك وهو دليلك .. فتستدل به عليه ، وتصل به إليه .

قلت : فكيف أتبع ؟

قال : تسمع قولى وتسلك طريقى .

قلت : كيف لا أبتدع ؟

قال : لا تسمع قولك ولا تسلك طريقك .

قلت : ما قولك ؟

قال : كلامى .

قلت : أين طريقك ؟

قال : أحكامى .

قلت : ما قولى ؟

قال : تحيرك .

قلت : ما طريقى ؟

قال : تحكمك .

قلت : ما تحكمى ؟

قال : قياسك .

قلت : ما قياسى ؟

قال : عجزك فى علمك .

قلت : كيف أعجز فى علمى ؟

قال : إنى ابتليتك فى كل شىء منى إليك ، بشىء منك إلى ، فابتليتك فى علمى بعلمك ، لأنظر

أتتبع علمك أو علمى ، وابتليتك فى حكمى بحكمك ، لأنظر اتحكم بحكمك أو بحكمى .

قلت : كيف أتبع علمى وكيف أعمل بحكمى ؟

قال : تنصرف عن الحكم بعلمى إلى الحكم بعلمك .

قلت : كيف أنصرف عن الحكم بعلمك إلى الحكم بعلمى .

قال : تحل بكلامك ما حرمته بكلامى ، وتحرم بكلامك ما حللته بكلامى . وتدعى على أن ذلك بإذنى وعن أمرى .





(٦)

انتهى أخذ العهد فعاينت موقفا آخر ..

موقف سجود الملائكة لآدم .

وقد أثار خلق البشر واستخلافهم فى الأرض حيرة الملائكة .

فى البدء حدث الله تعالى ملائكته ..

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك،قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

....

لم يكن قول الله للملائكة استشارة لهم ... سبحان الله وتعالى على استشارة أحد من خلقه . لم يكن قول الملائكة لله اعتراضا منهم ... إن الملائكة هم رمز الطاعة فى قممها العالية ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

....

تفسير الآيات أن الله تعالى كان قد حدث ملائكته أنه سيخلق خلقا يفسدون فى الأرض ويسفكون فيها الدماء ، فلما أخبر الله تعالى ملائكته أن الإنسان هو هذا الخليفة ، لم يفهم الملائكة حكمة استخلافه ، ومن ثم قامت فى نفوسهم الحيرة ..

إنهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، والخليفة المختار ليس منهم ، فما السر فى ذلك ؟ ، وما حكمة الله تبارك وتعالى فى الأمر ؟ ..

إن الملائكة يتصورون بفطرتهم البريئة ، وكونهم رموزا للخير المطلق ، أن الغاية المطلقة لوجود الكائنات هى التسبيح بحمد الله وتقديسه ، ومادام هذا

المخلوق الجديد سيخرج على هذا الإطار فما حكمة استخلافه ..

هى حيرة تنبع من قلب الطهر الكلى المطلق ..
وقد هدى الله الرحيم ملائكته الكرام فى حيرتهم ...
قال لهم ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

بهذه الإشارة إلى علمه المحيط وعلمهم القاصر ، أدرك الملائكة أن هذا المخلوق الجديد – رغم عصيانه وسفكه للدماء – سوف يحقق حكمة عليا لا يدريها غير الله ..

حكمة أخفاها الله عنهم الآن ، ولكنه سيكشفها لهم بعد خلق الإنسان ..

وجاءت بداية هذا الكشف حين أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا .





(٧)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين* فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

....

كان الملائكة لا يعرفون حكمة استخلاف آدم .. رغم ذلك ، لم يكد أمر السجود يصدر إليهم حتى سجدوا ، وهذه حقيقة الإيمان ... أن يطيع الكائن حتى لو كان لا يفهم الحكمة .

أرضانى كرم الملائكة ..

كانوا يسجدون لى سجود تحية ..

معروف ومفهوم أن سجود العبادة لا يكون إلا لله وحده .

وكان سجودهم لى من أحد جوانبه سجودا لإعجاز الله فى خلقى ، ومن جانب آخر كان تحية كريمة لى ..

....

فوجئت كما فوجىء آدم بأن هناك مخلوقا يقف وسط الملائكة ولا يسجد معهم .

ملأتنى الدهشة ، أيكون أحد الملائكة لم يسجد ..

دققت نظر الروح فرأيت الذى استكبر عن السجود مخلوقا من الجن لا من الملائكة ...

كان يقف مع الملائكة حين صدر إليهم أمر السجود ، لزمه الأمر مثلما لزم من هو أعلى منه ..

رغم ذلك ... لم يسجد .

لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة ما اسم هذا الكائن حتى خاطبه الله تعالى : ﴿ **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ .

عرفت أن اسمه إبليس ... وأدهشنى عصيانه ... ثم سمعت أسباب رفضه السجود ، فكانت أعجب من رفضه السجود ذاته .

« قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » لم أفهم كيف تكون النار خيرا من الطين وخالقهما واحد هو الله . خاطب الله تعالى إبليس قال :

﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين** ﴾ .

ارتعشت روحى من الخوف أمام هذه اللعنة الإلهية ..

تضعضعت رغم أنها انصبت على غيرى ..





(٨)

وقف إبليس أمام لعنة الله ضئيلا منبوذا .

تضعضع أمامها تماما ... شرب يأسه القاتل وأسكرته كراهية آدم .

كان إبليس قد وصل إلى مرتبة الوقوف مع الملائكة رغم أنه من الجن ، ما الذى أوصله لهذا المقام الرفيع ؟ لا أدرى ... كل ما أدريه أننى شاهدت انكساره وهو يطرد من رحمة الله ، وشاهدت عاره وهو يطرد من جنة الله .

ارتعشت روحى وتجمدت فى ظهر آدم من الرعب .

وعاد صوت إبليس يرتفع مجللا بالإثم ، وهو يقول :

﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

....

وقع لإبليس تغير هائل .

سقط جماله ، وسقطت كبرياؤه وضاع مقامه ، وتطاير ريش مجده ووقف عاريا كالآثم .

نظر إبليس إلى أبى آدم نظرة طويلة صامتة ... ثم استدار وخرج من الجنة .

وأدركت أن إبليس عدو للإنسان ..
عدو لا تنقشع عداوته إلى الأبد ..

....

بعد هذا الموقف الذى تجمدت فيه دهشة آدم أمام لعنة الله لإبليس ، عاينت موقف رحمة إلهى شامل .

كشف الله تعالى لملائكته سر استخلاف آدم في الأرض ، وهداهم في حيرتهم إلى بيان الحكمة ..

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

فهم الملائكة أن آدم يعرف أسماء الأشياء ، ويملك القدرة على الرمز للأشياء بأسماء . ويملك موهبة العلم والاكتشاف والاختراع والإبداع ، وذلك سر اختياره لعمارة الأرض ..

قدرته على التعلم والمعرفة والإبداع .





(٩)

دخل آدم وحواء الجنة قبل أن يهبطا إلى الأرض . خلق الله حواء من آدم ليسكن إليها ، ودخلت معهما الجنة وأنا لم أزل حلما فى ذهن حواء وذرة فى ظهر أبى ، أى أننى دخلت الجنة حالما أو فى صورة الحلم ... والجنة مكان رائع ..

أعتقد أن الجنة زمان وليست مكانا ..

هى زمان القرب من الله تعالى ..

هذا جوهر الجنة ..

....

أعطنى جنة من أنهار الخمر واللبن والعسل ،
أعطنى كل الحور العين فى الجنان ، أعطنى نعيم
الطعام والشراب وقل لى إن الله غاضب عليك ...
ستتحول الجنة إلى جحيم، وسيصير اللبن سما ،
والعسل علقما والخمر نارا فى الجوف ...
وسيتحول حب الحور العين إلى خيانات ؛
ولذلك اعترف أن الجنة ليست مكانا وإنما هى
زمان القرب من الله ، هذه حقيقة الجنة ... الجنة
هى زمن الدهشة والبراءة ..

وهى زمن الحب الجميل الذى لا يحمل هم
تغييرات المحبوب أو تحولاته ... لا شمس فيها
ولا زمهرير ، لا حر ولا برد .

ثمة ربيع دائم من الرضا الإلهى .

كان آدم قريبا من الله تعالى ، وكنت بالتالى قريبا
من الله عز وجل .. رحت أمتلىء بوهج من الهناء فى
هذا الزمان البعيد ، ورغم أننى كنت ذرة فى ظهر أبى ،
رغم موتى آنذاك ، رغم عدم وجودى بشكل مادى
ملموس ، رغم هذا كله راح يتخلق داخلى فى وهج

الجنة حلم فى الخلود فيها ، ولسوف يحمل كل إنسان هذا الحلم كما حمله آدم ..

....

من هذا الحلم ، من ثغرة الحلم نفذ إبليس إلى أبينا الأول آدم ، أغواه يوما بقوله : ﴿ **هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ وتقلبت الفكرة فى رأس آدم ، نسى تحذير الخالق بشأن الشجرة ، وراح يقترب بفكره منها ، لا أنكر أننى أحسست بالفرح ... كنت أعرف أن آدم فى طريقه إلى المعصية ، ولكن هذه المعصية ستكون سببا فى ميلادى ..

إن كل عجائب الحياة الإنسانية مدينة بالوجود للحظة نسيان بشرى كان الخالق يعلم أنها واقعة .

اقترب آدم من الشجرة المحرمة .





(١٠)

أكل آدم من شجرة المعرفة أو شجرة المعصية أو شجرة النسيان ... لم يكد يفعل حتى فقد براءته ..

اكتشف أنه رجل ... اكتشف أنه عار ... تطاير رداؤه الجميل فى الجنة ، اكتشف أن حواء امرأة ... واكتشف أنها عارية ..

أحس بالخجل من عريه ... وعريها ..

بدأ يقطع أوراق الشجر ليغطى نفسه ... اكتشف أنه فقد براءته كما فقدت الأشياء بكارتها ... لم يعد فى قلبه هذا اللحن الجميل من الحنان الطفولى ... على أن أخطر اكتشافاته كانت إحساسه المفاجىء بالبعد عن الله ..

أحس أنه يهوى ... وينزل ويهبط ... ويبتعد عن الله . أدرك أنه يقف في زمان المعصية لا زمان البراءة . وعلى أرض الخطيئة لا أرض الجنة ..

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ .

....

أدرك آدم أنه عصى الله ... وأخرج نفسه من الجنة .

أدرك أنه أخرج نفسه من جنة القرب والرضا ...
واندلع ندمه مريرا قاسيا فاجعا وبلا نهاية ...
انكفأ آدم يبكي وينتحب ..
وكانت حواء تشهد ما يجرى فانهارت حين شاهدت الرجل الوحيد فى الكون يبكى كالأطفال ..

ضمته حواء إلى صدرها ولكنه استمر فى بكائه ... واختلطت دموع آدم وحواء معا فى وداع أخير للجنة ..

نظر الله الرحيم إلى عبده الخاطىء ..
فاض حنان الحق وفاضت رحمته ..
﴿ وعصى آدم ربه فغوى ... ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ .

....

لا تبتئس يا آدم ... كان فى علم الغيب انك ستأكل وتعصى ... لولا عصيانك ما نزلت إلى الأرض ... أنت تنزل نزول كرامة لا نزول إهانة ... خلقت الأرض لك من قبل أن تخلق ، وكذلك أنبأ ربك الملائكة من قبل أن تخلق .





(١١)

كانت أحزان آدم فى حجم الأرض .

وكان قلبه فى حجم قبضة اليد ، وفاضت أحزانه من نفسه حتى كادت روحه تغرق فى بحار الندم وتهلك تماما وتيأس .

وفاضت رحمة الله تعالى عليه فعلمه كلمات تخفف حزنه ... كلمات عجيبة .

كانت هذه أول كلمات للتوبة يتعلمها بشر .

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

ردد آدم كلمات التوبة فجفت بحار حزنه وانطفأت نيران ندمه ... وعاد يستشعر الفرح الإلهي مرة أخرى .

عاد يقترب من الله تعالى ... وأصدر الله تعالى أمره بالهبوط إلى الأرض ... لم يعد آدم يحس الاغتراب ... لينزل إلى الأرض ... مادام قريبا من الله فسيان أن يكون فى الجنة أو على الأرض .. تتحول الأرض إلى جنة إذا كان الإنسان فيها قريبا من الله .

....

﴿ قال اهبطا منها جميعا ﴾ .

تأمل كيف يثنى الخالق ثم يجمع ، اهبطا منها معا ... هذا ما يتبادر إلى الذهن ، لكن قوله اهبطا منها جميعا ينطوى على الخلق البشرى كله وناموسه الذى سيصير إليه ..

﴿ بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ .

....

انتهى الأمر ونفذت المشيئة الإلهية ، ودعت الجنة قبل أن أتركها مع آدم ، ودعت ترابها المعطر وأشجارها وأنهارها وبراءة الأشياء فيها .

ودعت الدهشة والبكارة والنقاء ..

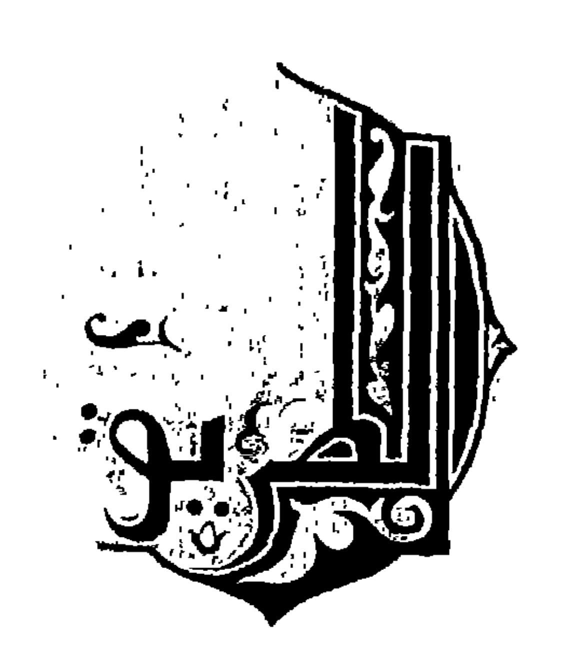
ودعت هذا كله بأن خبأت حلما عن الجنة داخل لا وعيى قبل أن أخلق ..

ونسجت روحى آلاف الحصون حول هذا الحلم الأول عن الجنة وهبطت مع أبى حين هبط إلى الأرض .

....

أخيرا لاحت الأرض .





(١٢)

حين هبط آدم إلى الأرض انقطع مجىء الذبذبات التى كانت تصل إلى وأنا ذرة فى ظهره حين كان فى الجنة . لم أعد أسمع ... لم أعد أرى ... لم أعد أحس ... لم أعد هناك .

انقطع الاتصال فجأة ... أدركت أننى ميت ... هذه هى الموتة الأولى .

....

يقول تعالى فى سورة غافر : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ .

قال المفسرون إن الموتة الأولى كانت فى أصلاب الآباء قبل الخلق ، والحياة الأولى هى الحياة الدنيا ، ثم يموت الناس فى الدنيا ، وهذه هى الموتة الثانية ، ثم يحييهم ربهم يوم البعث والقيامة ، وهذه هى الحياة الثانية .

....

لم أزل فى أحضان الموتة الأولى ... ليس الموت مخيفا كما نتصور ، إنما هو جزء من رحلة الإنسان فى الكون ، هو صورة من الصور . شأنه شأن النوم ، نحن ننام خلال حياتنا على الأرض ثم نستيقظ ، ننام ساعات ثم ننهض ، ليس الموت سوى نوم لسنوات أو قرون ... لا يعرف المرء حين يستيقظ أنه نام غير لحظة ، لا يدرى كم نام ولا يعرف وهو نائم أن الوقت يمر ، وهذا هو جوهر الموت أيضا ، ليس فيه إحساس بمرور الوقت ، وليس الإحساس بمرور الوقت ممتعا دائما .

....

نفخ الله من روحه فى الخلايا والدم فأحسست أننى أتحرك .. تحركت حركة سريعة فضربت جدارا لينا لم أعرف ما هو ، المكان ظلام هائل ، وأنا متكور على نفسى تماما ، تحولت من نطفة رجل وبويضة امرأة إلى خلية عجيبة تنقسم إلى ملايين الخلايا التى تصنع المخ ، وملايين الخلايا التى تصنع العظام ، وملايين الخلايا التى تصنع شبكة الأعصاب ، وبلايين الخلايا التى تصنع بقية الجسد الإنسانى ، ومن المدهش أن كل خلية كانت تعرف طريقها رغم أن الدنيا ظلام مطبق ، ثمة عمل لا يتوقف فى بطن أمى ، وهكذا رأيت يد الرحمة الإلهية وهى تعمل من وراء ستار قوانين معقدة متشابكة لا تضل أبدا ولا تخطىء ولا تنسى .

سجدت فى رحم الأم لهذا الإعجاز الذى يقع لى دون أن يراه أحد .





(١٣)

أوقفنى فى الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات ، ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ، ورأيت الغنى قد صار نارا ، ورأيت الفقر خصما يحتج ، ورأيت كل شىء لا يقدر على شىء ، ورأيت الملكوت خداعا ، وناديت يا علم فلم يجبنى ، وناديت يا معرفة فلم تجبنى ، ورأيت كل شىء قد أسلمنى ، ورأيت كل خليقة قد هرب منى ، وبقيت وحدى ، وجاءنى العمل فرأيت فيه الوهم الخفى ..

فما نفعنى إلا رحمة ربى ، وقال لى أين عملك فرأيت النار ، وقال لى أين معرفتك فرأيت النار ،

وكشف لى عن معارفه الفردانية فخمدت النار .

وقال لى : أنا وليك ... فثبت ، وقال لى : أنا معرفتك ... فنطقت ، وقال لى : أنا طالبك ... فخرجت ... (النفرى) .

....

خرجت من رحم الأم إلى سطح الأرض
ولدت والفجر يوشك على الأذان والمؤذن يبتهل
بقوله : يا أرحم الراحمين ارحمنا ..

....

أخيرا وصلت إلى الدنيا ..

حمل ميلادى فرحة عارمة للأسرة ، كنت أول عطاء من الله لهما فى الذرية ، مات قبلى شقيق وهو فى بطن أمى ، وكان وجوده سيؤدى إلى وفاة الأم ، واختارت العائلة بقاء الأم ، وهكذا ولدت بعد يأس ومخاوف ، ولكننى عوضت هذه المخاوف بولادة سهلة للغاية ، ويبدو أن رغبتى فى القدوم إلى الدنيا غلبت على ، فلم أكد أصدق انفراج باب الرحم حتى سارعت بالنزول .

كانت جدتى لأمى هى أول من تلقانى من الأرض ،
وكانت أول من لفنى فى الثياب .

بكيت قليلا شأن كل الأطفال ، ولم أكن أبكى
لسبب .

كنت أريد أن أسمع صوتى .

لقد ظللت قرونا كاملة صامتا لا أتكلـم ،
ولا أكتب ، ولا أرى ، ولا أسمع ... أخيرا دبت فى
الحياة ... كنت أبكى وكانوا يضحكون .

أخيرا رزقنا الله بولد .





(١٤)

أوقفنى فى الكون .

وقال لى : أنت معنى الكون كله .

وقال لى : أريد أن أخبرك عنى بلا أثر سواى .

وقال لى : الحقيقة وصف الحق والحق أنا .

وقال لى : هذه عبارتى وأنت تكتب فكيف وأنت لا تكتب ؟ (النفرى) .

....

ولدت لا أعرف الكتابة ولا القراءة ولا الكلام ولكننى ولدت أعرف الله ... وأعرف ملايين الأسرار ولكننى أطبق فمى على الصمت .

اكتشفت بعد أن ولدت أن سر مجيئى هو الأحلام ، كانت أمي تحلم بي قبل أن أولد . وقد بلغت ثقتها فى أحلامها أنها صنعت ملابسى على أحدث طراز لملابس الأطفال في ذلك العصر ، وكان أبي يحلم بى قبل أن أولد ، كان يريد ابنا يعمل فى القضاء ، أما أمى فكانت تريد طبيبا شهيرا ، أما جدى فكان يريدنى لمجرد أنه يريدنى ، وكذلك فعلت جدتى .

لم يكن أى واحد منهما يحلم لى بعمل معين ، كانا يدركان أنهما لن يعيشا ليريا هذا الأمل البعيد ، ولذلك اكتفيا بحلم بسيط هو أنا ، وكان كل واحد حولى يعلق على آمالا معينة ويحلم لى أحلاما معينة .

أما أنا ... فكانت كل مشاكلى أننى أريدهم أن يصمتوا قليلا وأريد أن أعرف اسمى ... اقترحت عشرات الأسماء ، وتداول أصحاب الاقتراحات أيها أقرب إلى السمع وألطف على الأذن .

ثم حسمت أمي الموقف كعادتها حين تحسم الأمور .

قالت : لقد نذرت لله إن عاش أن أسميه على اسم

سيدى أحمد البدوى ، اسمه أحمد ..

وعرفت أخيرا أننى انتسب بالاسم لسيدى أحمد البدوى ، وحمدت الله على سلامة الاختيار ، وخير الأسماء ما حُمِدْ وعُبِدْ .

تعرفت إلى أمى بعد أن أفاقت ، لم يكن بوسعى أن أقاوم حبها وهى تفيض على من حنانها كل هذا القدر ، ووقعت فى حبها من النظرة الأولى وتأكد هذا الحب بعد الرضعة الأولى .

وهكذا تعرفت على أول حواء لى فى الأرض .





(١٥)

حواء هى السكن ..

وحواء هى المودة والرحمة ..

بالنسبة لى كان أول سكن هو صدر الأم ، وكانت أول مودة ورحمة تصدر من الأم ..

يمكث النوع البشرى تسعة أشهر فى بطن أمه ، ثم يمكث معتمدا على الرضاعة عامين أو أكثر ، وهذا كله سكن عميق .

وقد سكنت فى أحضان أمى كل هذه الفترة ... وهذه هى أول جنة يعيشها الإنسان على الأرض ... وأحيانا تكون هى الجنة الوحيدة .

فى الرضاعة يستوى الأطفال جميعا فى الطيبة والبراءة والدهشة والوداعة ، لا شرور هنا ولا خداع ولا وجود لإبليس ... نحن فى جنة البراءة ... مرة أخرى يراود الذهن حلم الجنة .

يتحقق هذا الحلم فى الطفولة الأولى ... حيث يحس الأطفال عادة أكثر مما يعرفون ، وحيث يحدسون الأشياء حدسا قبل أن يبدءوا تمييزها ، وحيث يتلمسون طريقهم إلى الثدى فيلتقمونه وعيونهم مغمضة .

....

تأمل أطفال الآدميين حين يرضعون ... تأمل كيف يحدقون فى هدوء وثبات بعيدا عن الثدى وهم يرضعون ، كأنما يحيون حياتين فى آن واحد ، ورغم أنهم يمتصون الغذاء مباشرة من جسد الأم ، فإنهم لا يزالون روحيا يستطيبون ذكريات غير أرضية ... ومازالت عيونهم تحدق بعيدا فى اتجاه هذه الذكريات .

أى ذكريات لهذه الحقبة القديمة ... إن الطائر يحلق فى السماء وظله يجرى على الأرض مرفرفا كأنه طائر ، والطفل ببراءته يسعى لصيد ذلك الظل ، ينطلق وراءه وهو يعدو حتى تخور قواه .

لا يدرى الطفل أنه يطارد ظلا لطائر فى الجو . ولا يعلم أين أصل هذا الظل . هذه ذكرياتى عن فترة الرضاعة .

لا أذكر منها شيئا محددا بالذات ... تماما مثلما لا أذكر من الجنة السابقة شيئا محددا بالذات ... إحساسى بهذه الفترة يشبه إحساس رجل يسمع صوتا ولا يرى شفتين .





(١٦)

كيف يخرج من قلب الإنسان شغله الأول ؟
وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟

لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذا الخمر ،
وكنت فى حضرته من العشاق .

وإننى قد استقبلت الحياة على محبته ، كما
أن عشقه كان قد غرس فى روحى .

ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أننى
احتسيت مياه الرحمة إبان ربيعى .

ألم تكن يد فضله هى التى غرستنى ؟ أليس
هو الذى قد أخرجنى من العدم ؟

وما أكثر ما كنت قد شهدت من ألطافه ، ولكم
تجولت في بساتين رضاه .
إنه كان يضع فوق رأسي يد رحمته ، وكم كان
يفيض ينابيع اللطف مني .
وفي وقت طفولتي ، حينما كنت رضيعا ، من ذا
الذى كان يهز مهدى ؟ ... إنه هو .
وهل كان لى حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن
الذى رعانى غير تدبيره ؟

وكيف يمكن أن تنفصل عن المرء تلك الخليقة التى
دخلت كيانه مع الحليب .

جلال الدين الرومى ـ المثنوى المعنوى

سمعت هذه الكلمات من صمت أمي خلال فترة
الرضاعة ..

كانت فترة رائعة ... ولدت في الفجر ، وتحدثنى
أمي أننى كنت أرضع مرة واحدة كالكلاب ... ثم أنام
طوال الليل على جنب واحد ، أى حمق كنت أمارسه
فى الطفولة الأولى ..

لا بأس ... سوف انتقم عندما أكبر وأسهر كل ليلة حتى الفجر ... إما جالسا فى الشرفة أحاول عبثا عد نجوم السماء ، أو مقلبا فى الأوراق الصفراء للكتب القديمة التى تتحدث عن رحلات السندباد ، أو مقلبا بعد ذلك فى الكتب التى تبحث عن الحقيقة ..

لكننى أعترف بأننى وقعت أسير عشق مولانا جلال الدين الرومى منذ فترة الرضاعة ... أكان الرومى يغافل أمى ويهدهد فراشى بهذه الكلمات ... أم كانت الكلمات حقا غناء يشيع فى الجو ، وكل ما فعله الرومى أنه اشترك مع الجوقة فى الغناء ؟





(١٧)

كانت أمى سيدة مدهشة ... وكانت أما عظيمة بنفس المقدار .

كانت سيدة من أصحاب التقاليد .

وكانت لها تقاليد فى كل شىء ... فى الأثاث والطعام والحديث والتعبير عن المشاعر والجلوس وكل شىء ..

وقد فكرت أمى فى الاحتفال بعيد ميلادى بعد ميلادى بأربعة أشهر ... وقد حدثوها أن الناس تحتفل بأعياد الميلاد بعد سنة لا أربعة أشهر ، ولكنها أصرت ... وهكذا حملتنى إلى أكبر مصور فى ذلك العصر ، والتقطت لى صورة تذكارية ... كان عمرى

١٦ أسبوعا ، ولم أكن أستطيع أن أقف أو أجلس ، وهكذا تقرر أن تلتقط الصورة وأنا نائم . وكان من تقاليد هذه الصور أن تلتقط للزبائن وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم ... وهكذا خلعت أمي ملابسى وأنا فى الشهر الرابع ، وأرقدتنى على صدرى بلا حول ولا قوة ... ومدت يدها وأمسكت بى ، وبقيت مشكلة أن أنظر إلى العدسة بغير أن أطرف . ووقف أبى عند عدسة التصوير وراح يقوم بحركات وأصوات هدفها لفت انتباهى ... أخيرا نظرت ... ولمع الضوء وتجمد المنظر فى صورة تذكارية .

يحلو لى كثيرا هذه الأيام أن أتأمل هذه الصورة .
إن البراءة التى يعكسها الوجه أمر يؤكد أننى كنت أعيش فى الجنة .
تأملت يدى فى الصورة ... كانت صغيرة وناعمة وتحاول القبض على الهواء ..
كيف تحول هذا الوجه البرىء إلى تجاعيد الزمن وأحزان الكهولة ؟ ... كيف تحول الشعر الحريرى إلى أسلاك بيضاء ؟ ... كيف استطعت أن أحدق فى العدسة دون أن أطرف ؟

موقف لا تطرف (النفرى) .

قال لى : انظر ولا تطرف يكن ذلك أول جهادك فىّ .

موقف العهد .

أوقفنى فى العهد وقال لى : اطرح ذنبك على عفوى وألق حسنتك على فضلى . وقال لى : اترك علمك إلى علمى تقتبس نور الهداية ... وألق معرفتك إلى معرفتى تثبت الهداية .

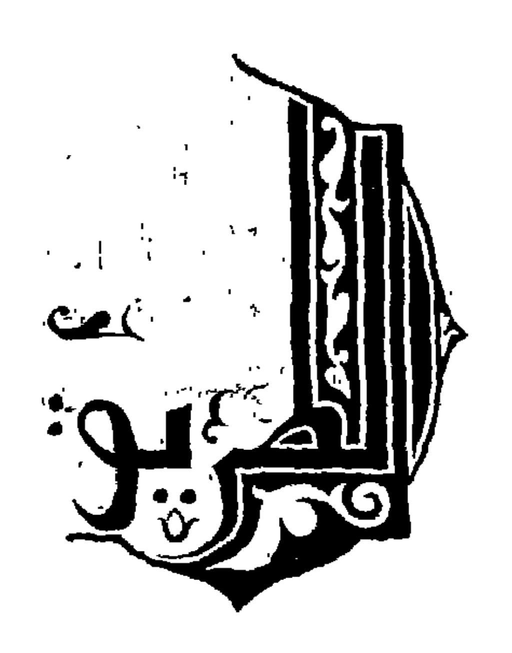
وقال لى : إذا وقفت بى تعرض لك كل شىء ليدفعك عنى .

وقال لى : إنما تأخذ أجرك ممن أصبحت له أجيرا .

وقال لى : إن عملت لى من أجلى فذاك لى ..

وإن عملت لى من أجل غيرى فذاك لغيرى .





(١٨)

مرت ثلاث ثوان ..

صار عمرى ثلاث سنوات ..

لا أذكر من طفولتى المبكرة كلها غير مشهد واحد ..

وأذكره مثل حلم غارق فى الضباب ..

شاطىء بحر طويل لعله الإسكندرية ... عربة أطفال يجلس فيها طفل يرتدى رداء من الصوف المشغول من رأسه إلى قدميه ... والدنيا نهاية شتاء أو بداية شتاء ..

أمى تقف وراء العربة وتدفعها أمام البحر ... هذا كل ما أذكره من طفولتى الأولى ... ولا أعرف لماذا لم تحتفظ ذاكرتى بغير هذا المشهد . إن

الصورة جزء من عالمى الداخلى ... وأذكر أننى
سألت أمى مرة : هل عشنا فى الإسكندرية ؟
قالت : نعم ... كان أبوك يعمل مدرسا هناك .
سألتها : هل كانت عندى عربة أطفال ... هل
كان لدى رداء من الصوف المشغول ؟ ..
قالت : نعم ..

سألت نفسى : أين ذهبت عربة الأطفال ؟ وأين
ذهب الرداء الصوفى ؟ وأين ذهبت أمى ؟

اختفى الثلاثة بالموت على ثلاث مراحل متعاقبة ..
لم يعد باقيا سوى البحر ..

فى طفولتى كان. هناك البحر والعربة والرداء
وأمى ... لم يكن إحساسى يومئذ يستطيع أن يميز بينى
وبين العربة والبحر والصوف وأمى ، كنت أحس أننى
أنا البحر والعربة والصوف وقد وقفنا معا نحدق فى
السر ، وكنت أحس أحيانا أخرى أننى شىء يختلف عن
كل ما أراه . وأحيانا كنت أحس أننى أتلقى قبلات مبللة
بعطر البحر ، حين يقع على وجهى رذاذ البحر الذى
يتناثر من الموج وهو يتكسر على منطقة صخرية ..

ومن الغريب أننى لا أذكر وجه أمى فى هذا المشهد ... أذكر ملمس الصوف وأحس بحركة العربة ولكننى لا أذكر وجوها بما فى ذلك وجهى نفسه ... كانت الصورة تخلو تماما من البشر ، لم يكن فيها غير كائنات وعناصر ، ومن بين هذه الكائنات كان البحر أضخمها .

هل وقعت فى حب البحر منذ هذا العمر ، أم أن لهذا الحب تاريخا سابقا يرجع إلى الأيام التى كان فيها عرشه على الماء ؟

مضيت أحدق فى البحر فى سهوم .





(١٩)

موقف البحر ... (لمحمد بن عبد الجبار النفرى) .

أوقفنى فى البحر فرأيت المراكب تغرق ، والألواح تطفو ، ثم غرقت الألواح ... وقال لى : لا يسلم من ركب .

وقال لى : خاطر بنفسه من ألقى نفسه ولم يركب .

وقال لى : هلك من ركب وما خاطر .

وقال لى : فى المخاطرة جزء من النجاة ، وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل .

وقال لى : ظاهر البحر ضوء لا يبلغ ، وقعره ظلمة لا ترى ، وبينهما حيتان لا تستأمن .

وقال لى : لا تركب البحر فأحجبك بالآلة .
ولا تلق نفسك فيه فأحجبك به .

وقال لى : إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابة من دوابه .

وقال لى : غششتك إن دللتك على سواى .

وقال لى : إن هلكت فى سواى كنت لما هلكت فيه .

وقال لى : الدنيا لمن صرفته عنها وصرفتها عنه ...
والآخرة لمن أقبلت بها إليه وأقبلت به على .

مضيت أحدق فى البحر وأرقب أمواجه
المتدافعة .
إن كل موجة مقبلة تبدو وكأنها تريد أن تقول
شيئا ما ..
شيئا بالغ الأهمية والخطورة .
ولكن هذا الشىء من الجلال والجمال بحيث
يعجز البحر عن تحويله إلى كلمات ، ومن ثم
يكتفى بانقلاب موجاته وانسياحها على
الشاطىء .

وبدا لى فى انقلاب الموج شىء يشبه الغضب ... لكنه كان غضبا لا يقول شيئا . وشدقا فمه يفوران بالزبد ... إن الموجة تضرب الشاطىء ثم يرهقها الغضب فتنداح عائدة .

تهدأ وتنسحب ... ثم تبدأ رحلة العودة إلى البحر حيث تذوب فى موجه ثانية ... ويتكرر المشهد بلا توقف ولا تغيير .

وكلما فتح الموج فمه المائى ليقول السر أدرك أن السر أعظم من أى كلمات ويغلق فمه على السر . وتتردد موجاته على الشاطىء ... هادئة فى أيام الهدوء عاصفة أيام العواصف .

أيكون للبحر مزاج بوصفه مخلوقا ... ولكل مخلوق مزاجه ..

مضيت أحدق فى البحر فسمعت قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ .



(٢٠)

يحلو للأطفال أن يطوحوا الأشياء من الشباك . كما يحلو لهم أن يضعوا فى أفواههم مالا يصلح للأكل ..

وقد خضعت فى طفولتى لهذا القانون الفوضوى .

كنت مغرما برمى الحلى الذهبية لأمى من الشباك ، وكنت مغرما بوضع أشد الأشياء غرابة فى فمى توطئة لابتلاعها .

وكثيرا ما حدثتنى أمى أن كراهيتى للذهب قد بدأت منذ طفولتى .. وما أكثر ما ألقيت أسورة أمى الذهب من البلكونة ، أو حلقها أو خاتمها ، كان يكفى أن تخلع أمى الحلق وتنساه مثلا فى غرفة نومها حتى أدخل

متلصصا وأمسك فى يدى الغنيمة ثم أسرع نحو البلكونة أو الشباك وأطوح الغنيمة على طول ذراعى ..

وتكتشف أمى ما حدث بعد دقائق أو ساعات ، وتنزل الشغالة للبحث أمام البيت عن الحلق الضائع أو الإسورة المفقودة ..

ثمة شيء كان يستفزنى فى لمعان الذهب ..
كنت أحس أن هذا المعدن اللعين هو معبود العصر .
ولهذا كنت أحاربه بأسلوب طفولى بحت ، أم أننى كنت استغل حمق طفولتى وأتمرن على حمق رجولتى فيما بعد تجاه الذهب ؟
أيضا كان من هواياتى وضع الأشياء التى لا تؤكل فى فمى ، إشارة موحية إلى أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ..

ذات يوم ... كانت أمى تخيط فستانا لها وكانت تضع جوارها مجموعة من الدبابيس المشبك ... فتناولت دبوسا منها ووضعته فى فمى وابتلعته .

هى عبقرية بغير شك ... كذلك حدثت نفسى أو حدثني الدبوس ولكنني لم أكد أفعل حتى مدت أمى يدها إلى الدبوس فلم تجده والتفتت إلى فضبطتنى متلبسا بابتلاع شىء ..

صرخت أمي صرخة طويلة أفزعتنى وأفزعت الدبوس الذى ابتلعته ..

اندفعت أمي نحوى وأمسكت برأسي وفتحت فمى بالقوة ومدت يدها فيه بحثا عن الدبوس فلم تجده ..

وانخرطت فى بكاء يتسم بالهلع فزادت حيرتى ... ثم هرعت إلى التليفون وحدثت أبى وهى تشهق بالبكاء أن يحضر فورا .

حضر أبي بعد دقائق ولونه أقرب إلى لون الليمون الأخضر . دخل وراح يسألنى : بماذا تحس ؟

بصراحة لم أكن أحس بأى قلق ... كان الدبوس داخلى مطمئنا تماما .



(٢١)

لم أفهم سر الهلع الذى انتاب الأسرة كلها حين ابتلعت دبوسا من باب التجربة ، هل التجارب الإنسانية حرام ؟

لم أكن أفهم سر اضطراب الجميع ، ولا فهمت سر تجمع الأسرة كلها ، ولا فهمت سر الدموع التى كان الجميع يذرفونها من أجلى ..

لم يكن الدبوس يؤلمنى ..

بعد ساعات حملتنى الأسرة إلى طبيب ... لم يصدق الطبيب ما حدث سألنى : أنت بلعت الدبوس ؟

أجبته بابتسامة بريئة ... أصر الطبيب على عمل أشعة على الفور ، وجاءت نتيجة الأشعة بالإيجاب ..

كان هناك دبوس فى معدتى .
قال الطبيب وهو يتأمل صورة الأشعة ليس أمامنا إلا الصلاة ... الأمر كله فى يد الله ..
أفهم الطبيب أمى أن على أن آكل كمية من القطن ، حتى تنزل إلى المعدة وتلتف حول الدبوس ، ثم أوصى الطبيب أمى أن تنخل بقايا الطعام بعد الهضم بحثا عن الدبوس ..

رفضت تماما أن آكل القطن . لقد أكلت الدبوس كالحواة لكننى رفضت أكل القطن ، ليس للقطن أى طعم ، أما الدبوس فله طعم المعدن الذى صنع منه ... توسلت إلى أمى وهى جاثية على ركبتيها أن آكل القطن فحاولت . ولكننى فشلت تماما ..

وانتابت الأسرة حالة ذعر لم أفهمها قط ..

كنت أسمع حوارهم وهو يتواثب من موضوع إلى موضوع ... وكلمة الموت تتردد فيه ، وفهمت أخيرا أننى يمكن أن أموت لأننى ابتلعت دبوسا ، ولأمر لا أدريه لم أكن أصدق أننى سأموت ... خيل إلى ــ يومئذ ــ أننى لن أموت بسبب دبوس ، يجب أن ابتلع

قنبلة لأموت ... خيل إلى أن الله لن يعيدنى إلى الموت مرة ثانية بسبب تجربة تشبه تجربة آدم فى الأكل من الشجرة ..

لقد أكل آدم ما نهى عن أكله ..

وابتلعت أنا مالا ينبغى ابتلاعه ، ورحم الله آدم كما سيرحمنى ... أذكر الليالى الطويلة التى سهرت فيها أمى جوار فراشى وهى تصلى ... أذكر الليالى الطويلة التى سهر فيها أبى وهو يصلى ... لم تكن أمى تصلى قبل هذا الحادث ... وكذلك أبى ... دفعهما الخوف فى قلب الصلاة ، ثم نزل الدبوس ذات يوم كما ابتلعته ..

أدخلته فى جوفى يد الحماقة البشرية ، وأخرجته من جسدى يد اللطف الإلهى .





(٢٢)

قالت جدتي : « كان ياما كان ... يا سادة يا كرام ... مايحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام ... سأحكى لك حكاية ملك الأقاليم السبعة في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، عاش ملك من الملوك الشجعان ، هو إبراهيم بن أدهم ... كان غنيا يملك قصرا يمتلىء بالأثاث الفاخر والسجاجيد الثمينة والقناديل الملونة ... وكان يحب الموسيقى والغناء ... وكان أتباعه الأمراء يعرفون حبه للموسيقى والطرب ، فهم يحضرون له الجوارى وينتقون من بينهن أحلاهن صوتا ويعلمونها الغناء ... لتغنى لملك البلاد السبعة » .

وكان الليل إذا جاء انعقد مجلس الملك ودارت الموسيقى ووضعت أطباق الطعام ولعلعت الضحكات .

ونقر الباب ذات يوم سيدان غريبان لم يرهما أحد ..
سألا : هل صاحب هذا القصر أمير أم عبد ؟
قال حراس القصر : بل أمير .
قالا : نعم ... لقد قدرنا ذلك ... لو كان عبدا لاستحى من ربه .
قال الرجلان كلمتهما وغادرا المكان ... وبلغ الأمير إبراهيم بن آدم هذا الحوار ، فانقدح فى عقله معناه ، وأدرك أنه يتصرف فى الدنيا كملك لا كعبد لله ... وخرج الأمير من ملكه فلم يعد إليه ..

خرج من ماله وملكه وثروته وارتباطاته وكل ما يشده إلى الدنيا .. خرج إلى الجبال والصحراوات والأودية ... وانطلق فى طريقه الروحى بحثا عن الحقيقة الخالدة ... لم يعد يراه أحد ... وانطلقت الشائعات تقول : إنه صار وليا له كراماته ..

ومرت سنوات ، وخرج أمير كان من أتباع إبراهيم بن أدهم يتمشى على شاطىء نهر ..

وفوجىء هذا الأمير بإبراهيم بن أدهم وهو يجلس على شاطىء النهر ويرقع ثيابه، كان يمضى فى عمله صامتا وهو يضع الإبرة فى ثوبه ويخرجها منه ، ويعاود وضعها فيه ثم يخرجها منه كى يخيط الرقعة .

وقال تابعه القديم فى نفسه : ما أغرب الزمن ... لقد كان هذا الشيخ الفقير الذى جلس يرتق ثيابه ملكا على سبعة بلاد ... وها هو اليوم يجلس كالمتسول وهو يخيط ملابسه ..

وانكشف لإبراهيم بن أدهم تفكير تابعه القديم ؛ ولذلك ألقى إبرته فى الماء ... ثم ناداها ... فإذا آلاف الأسماك ، فى فم كل منها إبرة من ذهب ، قد رفعت رءوسها من بحر الحق قائلة : خذ أيها الشيخ إبرتك ... عندئذ التفت الشيخ إلى الأمير وقال له : مملكة القلب خير أم ملكى المادى القديم الحقير ؟!





(٢٣)

لماذا خلق الله المدرسين والمدارس ؟

لماذا لا تكون الحياة مجرد حواديت من الجدات فحسب ؟

لماذا تكون هناك امتحانات هدفها اعتصار التلميذ ومعرفة حظه من الحفظ ؟ لماذا يضربنا المدرسون ؟ ولماذا يقحمون على عقولنا كل هذه الكمية الهائلة من المعلومات السخيفة ؟

لا ريب أن هناك مناطق أخرى ليست فيها مدارس ... لاريب أن على سطح كوكبنا الأرضى غابات تضم وحوشا ، وليست فيها مدارس ... كنت أفضل العيش فى غابة على الحياة فى مدرسة ... كنت ساذجا ..

لم أكن أعرف أن مهمة المدارس تخريج وحوش كالغابات تماما ، لكنهم وحوش يتحركون طبقا لخطة مدروسة وخرائط وأنابيب اختبار ... ومثل القضاء الداهم أو الزلزال المزلزل يأتى الامتحان فيلتهم من يلتهمه من الوحوش التى يربونها فى المدارس ..

تتحول الوحوش إلى مخلوقات مسكينة بائسة ترتعش فى ملابسها من الخوف ، ورغم أن الامتحان محدد فى يوم معين من أيام السنة . وهو عادة آخر أيام السنة الدراسية ... رغم ذلك كان الامتحان يفاجئنا دائما ... وكان يفاجئنى بشكل خاص ..

كنت أكره أبناسا فكرة أن يمتحن الإنسان الكبير أخاه الإنسان الصغير ، وكانت هناك علوم أحبها وعلوم أكرهها ، ومواد تستهوينى ومواد أنفر منها ، كان التاريخ يشبه مجموعة من الحواديث الجميلة ذات المعانى التى تشبه حكايات جدتى ، أما الجغرافيا فكانت طعاما لا يستطيع ذهنى ابتلاعه ، ورغم أننى سأصير عندما أكبر عاشقا للأماكن ، فلقد كانوا

يدرسون لنا الجغرافيا بأسلوب تقليدى لا يعلم الحب ..

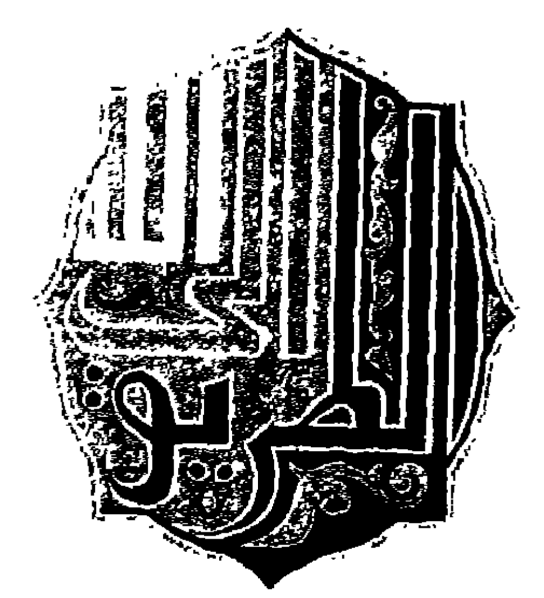
ورغم حبى لله ، فقد نجحت دروس الدين فى مرحلة الطفولة أن تزرع فى نفوسنا لا شىء ، لا الحب ولا الكراهية ، ولا الإيمان ولا الخوف ، كانت حصة الدين هى حصة النوم العميق ... كان المدرس يأمرنا أن نخرج كتاب الدين ونطالع فيه ..

وأحيانا ينقض السؤال على رأسك وأنت نائم فيوقظك بغتة ..

وتنهض مفزوعا فيعاود المدرس صك سمعك بالسؤال ... آه ... أنت نائم إذن ..

ما الفرق بينك وبين أحد السباع أو الحمير الوحشية النائمة .. إنه نائم وأنت نائم ..





(٢٤)

قال مدرس اللغة العربية :

ـ اقرأ يا ولد .

قلت : قال الله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا** ﴾ ... صدق الله العظيم .

قال المدرس : عظيم ... ما معنى ﴿**وتبتل إليه تبتيلا**﴾ ؟

سقط على السؤال كما سقطت التفاحة على رأس نيوتن ... مع فارق بسيط ، أنه اكتشف من سقوطها قانونا من قوانين الكون ، أما أنا فأكلت التفاحة وعدت إلى النوم .

قال المدرس : ما معنى ﴿ **تبتيلا** ﴾ ؟

زاد السؤال صعوبة ، وخيل إلّى أن الله يريد منا

أن نحبه ، ولم أعرف لماذا يريد الله منا أن نحبه ..

رفع مدرس اللغة يده بالمسطرة وقال :

ــ هات يدك ..

مددت يدى أمامى ... وسقطت المسطرة بعنف لا يخلو من حنان ... كان المدرس غاضبا لأننى لم أعرف ..

وأنشأ يحدثنى بلطف وبرود وهو يضربنى على يدى الممدودة :

ــ أنت لا تعرف ... لماذا ؟ هل أنت حيوان ؟ ألست إنسانا ؟ أليست مهمة الإنسان هى المعرفة ؟ هل تعتقد أنك حمار جاء إلى الدنيا ليأكل ويشرب وينهق قليلا ثم يمضى عنها ؟ هل أنت حمار ؟ الحمار لا يعرف ... هو الذى يسكت إذا سأله أحد ... هيه ..

هذا يكفيك كعقوبة ... التبتل هو الذوبان فى العبادة . هو العكوف عليها والاشتغال بها والانقطاع عن السوى ..

لا أعرف أين هو اليوم ... يرحمه الله حيا أو ميتا ..
لقد فهمت ما قاله ولكننى فضلت - فيما بعد - أن أفسر ﴿ **وتبتل إليه تبتيلا** ﴾ ببضع أبيات من الشعر :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة
وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وصرت بلا وجد أهيم من الهوى
وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى
شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم
وشاهدت موجودا بغير عيان

....

أعرف اليوم أن قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرون . أعرف أن لها ألسنة تناجى برموز السر ما يخفى عن الكرام الكاتبين . أعرف هذا كله الآن ... لكننى لم أعرف جواب السؤال عندما سئلت .



(٢٥)

صلى وصام لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

الامتحان الكبير على الأبواب ..

يسكن الرعب فى غرفة تمتلىء بالأشباح والعناكب والأرواح الشريرة ، وداخل هذه الغرفة أعيش ... أتنفس وأرتعش وأوجد ... وتنظر عن يمينك فلا ترى سوى الهلاك ... أما يسارك فهلاك مماثل ، ووراءك وأمامك أهوال من الهلاك المؤكد .

ووسط هذه الظلمة المظلمة والرعب الوبيل لا يبقى لك إلا أن تتوجه بكل وجودك الروحى إلى الله ..

وليس أمامك إلا أن ترفع أكف الضراعة وتسأل :

– يارب ..

تقولها ويمنعك الرعب من أهوال الامتحان أن تكمل ..

....

أوقفني وقال لى : إذا رأيتنى كان فقرك فى إجابة المسألة .

وقال لى : إذا رأيتنى فانظر إلىّ أكن بينك وبين الأشياء ..

وإذا لم ترنى فنادنى لا لأظهر ، ولا لترانى ، ولكن لأنى أحب نداء أحبائى لى . وقال لى : أفل الليل ، وطلع وجه السحر ، وقام الفجر على الساحة ، فاستيقظى أيتها النفس النائمة وقفى فى مصلاك ..

وقال لى : اليت لا يجدنى طالب إلا فى الصلاة .

موقف ضراعة (النفرى)

انتهى الأمر وهربت من مرعبات الدنيا إلى جزيرة الأمن الوحيدة فى الدنيا ..

أيمكن أن تكون الجزيرة زمنا لا أرضا ..

إن الصلاة جزيرة ... ورغم ذلك فهى وقت وليست أرضا .

تشبه الصلاة الجنة تماما ..

كانت الجنة زمانا هى زمان القرب من الله ..

والصلاة هى الأخرى زمان القرب من الله ..

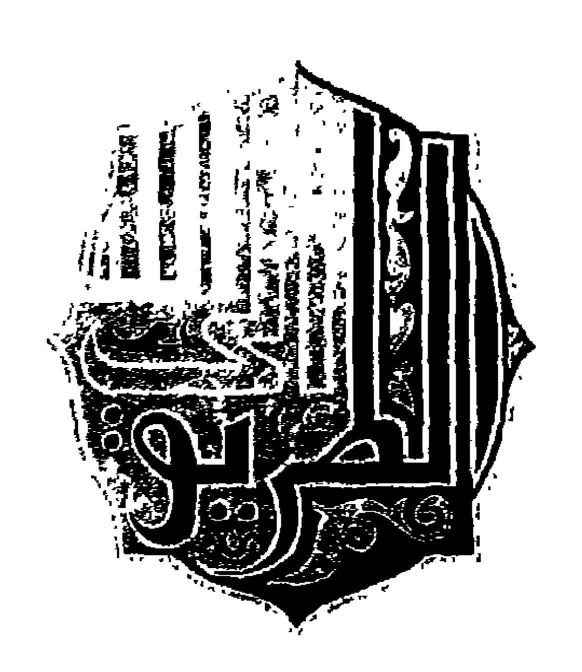
فى الجنة كان الله هو القريب منا بمشيئته ... وفى الصلاة يكون الإنسان هوالقريب من الله بإرادته ..

تحكم الصلاة نفس قوانين الجنة .

يمنحك الإسلام خمس زيارات للجنة كل يوم ..

إذا كنت تتذوق فى الصلاة ثمار الجنة ، فأنت حقا تصلى ... وإذا كنت لا تحس بشىء فأنت تمثل دور المصلى مثلى .





(٢٦)

جاء شهر رمضان أخيرا مثلما تجيء أيام السعادة الحلوة التى لا تلبث أن تجرى من بين أصابعك كما تجرى المياه .

وشهر رمضان عند الأطفال هو الفانوس الملون والشمعة المشتعلة ، والإنسان يخاف من الظلام ، ويمثل الظلام عند الأطفال خوفا أشد ، ويبدو أن فترات الظلام التى عاشت فيها البشرية كانت طويلة فتراكمت داخل الوعى حقبا بعد حقب ..

وفى شهر رمضان يشعل الأطفال شمعة واحدة تبدد الظلام ، وهذه هى حقيقة شهر رمضان ..

إننا نزيد فى هذا الشهر من الصلاة ومن قراءة القرآن ... والصلاة صلة بنور السماوات والأرض . والقرآن كلمات من نور ..

وهو نور يضىء العقل المدرك والعقل الباطنى .. أى أنه يضىء العقل والفؤاد معا ، وعلى هدى الضوء يرى العقل ويرى الفؤاد .

قال تعالى : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ .

أرأيت فؤادا يرى ؟ هذه هى الرؤية الصحيحة للهلال ... وغيرها من الرؤى صور وأخيلة ..

فإذا تعلم فؤادك الرؤية تعلمت عيناك أسرار البكاء ..

إن شاء الله أن يعاوننا جعلنا نميل إلى الحزن والشجى .

فما أهنأ العين التى تبكى من أجله ، وما أسعد القلب الذى يحترق فى سبيله ..

وكل بكاء عاقبته الضحك ، والبصير بالعواقب عبد مبارك . فأينما وجدت الماء الجارى وجدت

الخضرة ... وحيثما وجدت الدمع المنهمر وجدت الرحمة ..

فكن مثل الساقية باكيا مبتل العينين حتى تنبت الخضرة فى رحاب روحك ..

وإذا أردت الدموع ... فرفقا بمن تفيض منه الدموع ، وإن أردت الرحمة فارحم الضعفاء .

(جلال الدين الرومى) المثنوى المعنوى

....

انصرمت أيام شهر رمضان كعقد منَ اللؤلؤ انفرط فى صحراء العطش ... وقديما قال الرسول : « إن لله فى أيام دهركم نفحات ... ألا فتعرضوا لها » .

لم يكن ممكنا للطفولة أن تعى هذا كله أو تفهمه ... ومن ثم اكتفينا بالدهشة ..





(٢٧)

قالت جدتى : وحياة النبى الذى وضعت يدى على شباكه ..

بعد هذا القسم الكبير تقول ما تريد أن تقوله من كلام هام ... كان الموضوع هو ليلة القدر ..

كان عمرى ثمانى سنوات ... وكانت جدتى تجلس جوار فراشى وتحكى لى قصصا مختلفة ، من بينها حكاية سريعة عن ليلة القدر . قالت : فى شهر رمضان ليلة تتفتح فيها أبواب السماء ، ويظهر نور قوى لا تحتمل العيون رؤيته ... ثم ... ثم تتحول الأحلام إلى حقائق ..

رمضان ... بعد صلاة التراويح يقيم الإمام صلاة التهجد أو صلاة القيام ..

يقيمها فى الثلث الأخير من الليل ..

تستغرق الركعتان نصف ساعة ... يقرأ الإمام كثيرا من آيات القرآن ، فإذا ركع أطال الركوع حتى لتبلغ تسبيحاتك خمسين تسبيحة ، ثم يرفع فيطيل المكث ، فإذا سجد أطال السجود ، وتدعو فى سجودك حتى لتحس أنك قلت كل ما لديك ومازال الله تعالى ينتظر المزيد من ضراعتك .

هذه الصلاة تذيب الإنسان تماما ... تعود به إلى المياه التى كانت منها النشأة الأولى ..

فى هذه الصلاة تتفتح أبواب السماء وتحس بمعنى ليلة القدر .. إن ليلة القدر هى سر الجنة ... والجنة هى القرب من الله تعالى ..

لكن هذا المعنى لايزال بعيدا عن إدراك الطفولة أو معرفة الأطفال ..

ونحن لم نزل فى زمان الطفولة .

قلت : هل يظهر نور قوى ؟
قالت : نعـم .
قلت : أريد أن أرى هذا النور ..
قالت : أنظر إلى السماء فى ليلة القدر ..

لم أعرف منها فى أى يوم تقع الليلة ، ولم أعرف هل كانت تتحدث عن نور مادى أو نور معنوى ، ولكننى رجحت بطفولتى أنها تقصد النور المادى ... ومضيت اختلس النظر إلى السماء فى شهر رمضان ... محاولا البحث عن هذا النور الذى سيظهر فى إحدى الليالى ... كنت أبحث فى السماء ..
تماما مثلما يجرى الصياد الأحمق وراء ظل لطائر يطير فى السماء ... ويحاول اصطياد الظل ..
كان هذا النور جوار يدى ... كان جوار يدى مصحف صغير ... ولم يكن نور ليلة القدر غير الاتصال الحقيقى بهذا المصحف ..

المسجد الحرام فى العشر الأواخر من شهر



(٢٨)

فى البحر ألف إغراء وإغراء ... سطحه الأزرق الجميل المنبسط الذى يشيع بالوداعة الأنثوية ... وهذه المودة الرطبة التى تكون للمياه حين تلتف حول الجسد .. وهذا القانون المدهش الذى يجعل المياه تحمل الإنسان ... هل تشك أن المياه مسخرة للإنسان مأمورة أن تحمله ؟ ما تفسيرك إذن لقانون الطفو ..

لاحظ أيضا أن المياه والتأمل الفكرى قرينان قديمان ... فى الماء سر يجعل الإنسان يقفز فى البحر ، أو يسجنه البحر على الشاطىء فيقف أسير الصمت والتأمل ..

وهناك فرق بين أحضان البحر وأحضان أى كائن آخر . حين يحتضن الإنسان إنسانا أو كائنا آخر ، لا يحتوى جسدنا جسد من نحبه ، وإنما تبقى من جسد من تحب أجزاء خارج دائرة الاحتواء ... هذه الأجزاء العارية ثغرات يمكن أن ينفذ منها كائن آخر .

أما أحضان البحر فهى وحدها التى تحيط بالإنسان كله ... تلتف حوله كله ، لا تترك فيه ثغرة ... تحتويه بالمعنى الدقيق للكلمة ، والإنسان والبحر قريبان قديمان ... وجعلنا من الماء كل شىء حى .

هما ابن وأم ..

ينحدر النوع الإنساني من الماء كما ينحدر الطفل من أمه ... هذه الأمومة الكونية للبحر كانت منافسا لأمى فى طفولتى ..

عشقت البحر وكنت أقضى فى أحضانه معظم أيام الصيف ومعظم أيام الشتاء ..

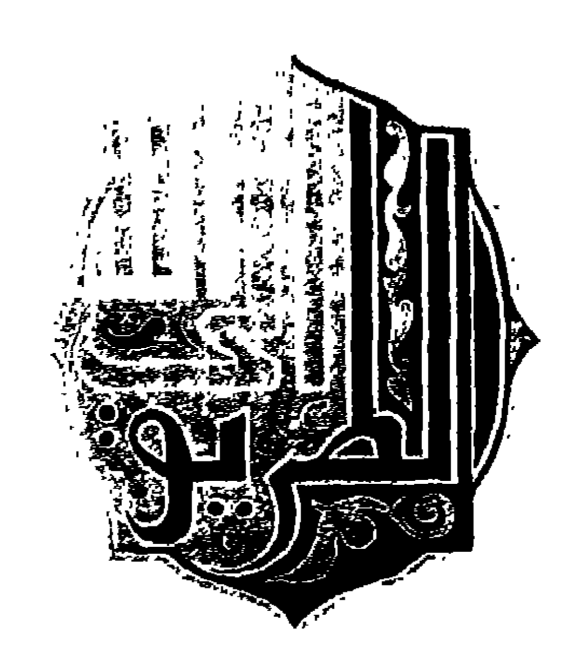
وقد دفعت ثمن عشقى للبحر ذات صيف ..

كان عمرى خمس عشرة سنة ... حين وقفت فى ذلك الصباح أمام البحر وقلت لنفسى : سوف أسبح حتى هذه النقطة هناك ... ثم استدير وأسبح بعرض الشاطىء ... أدخل من شاطىء الإبراهيمية وأخرج من شاطىء كليوبترا ... ستستغرق الرحلة عدة ساعات ... كنا خمسة أصدقاء ..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى نقوم فيها بهذه السباحة المضنية ، كان العقل ثملا بخمر الشباب ... وحصان الرغبة يدفع العربة مجنونا منتشيا بزهو القوة .

كانت الرمال الصفراء تبدو مثل فخ نسائى جميل لم ينتبه إليه أحد ... جرينا فوق الرمال وألقينا أنفسنا فى أحضان الموج ... بدأنا نسبح ... تقدمنا وسط مياه مزبدة لم تلبث أن تحولت إلى تنفس عميق حين خلفنا الشاطىء وراء ظهورنا .

وابتعد الشاطىء ونحن نسبح ... ابتعد أكثر مما قدرنا ..



(٢٩)

ما الذى كنا نحاول إثباته ؟

هل كنا نريد هزيمة البحر أو هزيمة الخوف داخلنا من البحر ... أم كانت الرحلة مجرد سباحة طويلة تستغرق ساعات ؟ كنا نشق صدر الموج نحو أعماق البحر ..

....

ثم بدا لى فتوقفت والتفت خلفى ... كان الشاطىء يبدو مثل خط بعيد باهت الصفرة ترصعه الشمسيات الملونة ... قلت لأصدقائى : هذا يكفى ، فلنسبح الآن بعرض البحر ... مرت ساعة ونحن نسبح ... ثم توقفت فجأة وسط الموج وأحسست أننى سأغرق ..

داهمنى دون سبب واضح إحساس عميق بأننى سأغرق ، توقفت فى المياه وأحسست أننى أغوص ... قاومت الغوص وحركت قدمىَّ فطفوت ، وأحسست أن قدما من قدمىَّ لا تتحرك .. أصابنى تقلص عضلى ..

لاحظ الأصدقاء أننى تخلفت عنهم فتوقفوا عن السباحة .

....

□ ماذا حدث ؟ ... سألنى أحدهم وهو يستدير نحوى فى المياه ..

قلت دون انزعاج : إنى أغرق ... ضحكوا طويلا ولكنهم فوجئوا أننى أغوص فى المياه ... غصت فى المياه حتى اختفيت ... شربت مياه البحر فأسكرنى الشراب ، احتوانى حضنه كاملا فلم يعد باقيا منى شىء لغيره ... حركنى الخوف فعدت أطفو ... لقد أحببت البحر حبا لم أمنحه لمخلوق آخر ... أيكون جزائى على حبه هو

الغرق ؟ ... ألقيت السؤال على البحر فابتلعه الموج .

....

وارتعشت عظامي من الخوف ..

اقترب مني الأصدقاء وحدثني أحدهم أن استند قليلا على كتفيه لأستريح ... تبادل الأصدقاء محاولة إبقائي طافيا على المياه ... مرت دقائق وتعبوا هم الآخرون فابتعدوا عني ... وبقيت وحدي وسط المياه ..

حين أيقنت أن طيش الشباب قد خذلني ، وأن القوة تغادرني ، وأن الأصدقاء يتخلون عني ... وقفت وجها لوجه أمام البحر ، وهكذا خطوت رغم إرادتي داخل دائرة الاضطرار ... وتذكرت قوله تعالى : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه** ﴾ ..

يارب ..

لم أكن أعرف ماذا أقول بعدها ..

كنت مياهاً تتوسل إلى خالق المياه أن ينقذها من المياه .



(٣٠)

لمع في ذهني وأنا أقاوم الغرق أنني استحق الغرق ... تحولت كل أمواج البحر إلى ذنوب صغيرة تربت في أحضان اللامبالاة والاستنكار فكبرت ، ثم صارت موجة فموجتين فثلاث موجات ، ثم صارت بحرا لا نهاية له ..

ولمع في ذهني وأنا أقاوم الغرق أن البحر مثلي تماما ... عبد مأمور فهل صدر إليه الأمر بابتلاعي ثم بدا لي أن الغرق في البحر قانون من قوانين الحب النافذة ... على من يحب أن يغرق فيمن يحبه إثباتا لحبه ... أليس ذلك قانون من قوانين النساء في عشقهن أيضا ... أي امرأة تحب تريد ممن يحبها أن يغرق

فيها ... أأكون قد أسلمت نفسى للهلاك دون أن أدرى ... لماذا أحببت البحر كل هذا الحب ... لماذا حلمت أن أغرق فيه ... ولماذا أصحو الآن على بشاعة الحلم ؟

....

يقول ابن عطاء الله السكندرى : « ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا ..» لن أفهم هذه العبارة الآن ... سأفهمها بعد تجربة بشرية تشبه تجربة الغرق فى البحر ... ولن أفهمها إلا بعد عامين كاملين من العذاب المتصل المخيف ... استغرق إحساسى بالغرق فى البحر ثوانى قليلة ثم خرج من قلبى فعدت أسبح ..

زايلنى إحساسى بالبحر ... تأملت البحر بنظرة باردة محايدة تخلو من الحب ... أنت أكبر منى حقا ولكنك مثلى عبد تصدر إليه الأوامر من خالقه ... أيها البحر العظيم لا تغضب إذا تخطيتك وتجاوزتك واتجهت صعدا إلى الله بالسؤال أن يلجمك وأن يوقفك عند حدك ..

لم أعد أحبك أيها البحر .. وبالتالى فلا سلطان لك عليّ ... أنت مخلوق مثلى ، فأى حمق أن أقع فى عشق مخلوق مثلى ... اللهم اصفح عنى ..

اللهم أغفر لى هذا الهوى البشرى الذى سيبدأ بالبحر وينتهى بعيون نساء تذكرنا بصفاء البحر وهو صفاء مخادع .

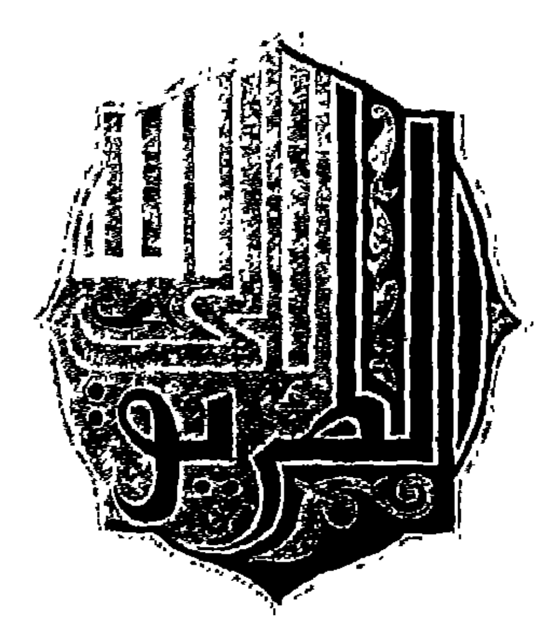
....

موقف الصفح الجميل .

أوقفنى فى الصفح الجميل وقال لى : لا ترجع إلى ذكر الذنب فتذنب بذكر الرجوع ... وقال لى : أطعنى لأنى أنا الله لا إله إلا أنا أجعلك تقول للشىء كن فيكون ..

....

أمرت البحر أن يدعنى وشأنى وعاودت السباحة هادئا إلى الشاطىء ..



(٣١)

تركت تجربة الغرق فى نفسى أثرا عميقا رغم أننى لم أحدث عنها أحدا ... أدهشنى كل هذا الخوف من الموت ... وبرز الموت كقضية فلسفية تفرض نفسها على وجودى منذ وقت مبكر ... نسيت أننى كنت ميتا قبل أن أولد ، ونسيت أن الموت تجربة تمر بالإنسان مرتين ، كما أن الحياة تجربة تمر به مرتين ... ما سر هذا الخوف إذن ؟ كيف نخاف مما عشناه قبل ذلك ، حتى لو كان ما عشناه هو الموت ؟ حيرتنى هذه الفكرة طويلا ... ثم تعرفت على ملك الموت ذات ليلة وأنا أقرأ قصص الأنبياء ..

....

تقول القصة التى يذكرها ابن كثير : إن الله عز وجل بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ليصنع منه آدم ، ونزل جبريل إلى الأرض ، فقالت له الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تأخذ ، فرجع جبريل ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها ... بعث الله تعالى ميكائيل فعاذت الأرض بالله فأعاذها ، ورجع يقول كما قال جبريل ... فبعث الله تعالى ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ... فأخذ ملك الأرض من وجه الأرض وأخذ من أكثر من مكان ، أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء وصفراء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ..

....

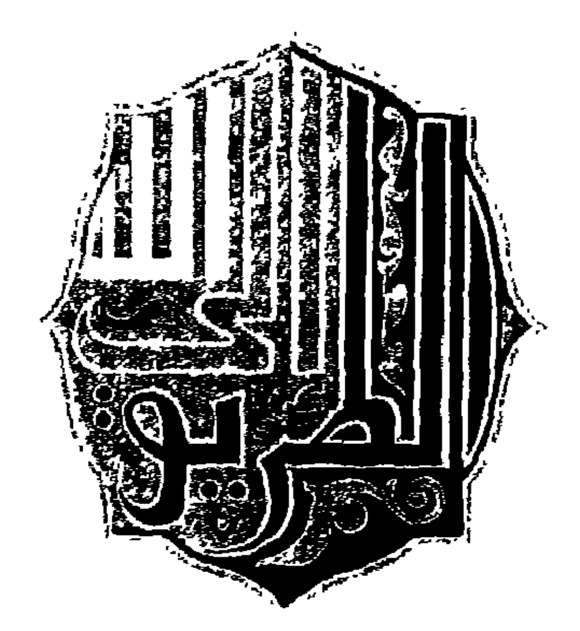
هذه هى القصة التى قرأتها فى شبابى المبكر ... لم أفكر طويلا فى القصة ، ولا دققت النظر فى بنيانها لأعرف هل هى صحيحة أو مؤلفة ... كل ما التقطته منها أن ملك الموت حمل تراب جدنا الأعلى من الأرض لكى يسويه الخالق بيديه وينفخ الحياة فى آدم . نحن أصدقاء إذن ... ليس هناك

مبرر للخوف من الموت وملك الموت صديق
قديم وصاحب فضل على أبناء آدم ..

أليس هو الذى قد جمع ترابهم من الأرض من قبل أن يخلقوا ؟ أليس هو الذى يستل من الجسد شرارة الحياة فيعودون ترابا كما كانوا ؟ تصورت ملك الموت منذ طفولتى مخلوقا نبيلا مهيبا خفيا لا يبتسم أبداً ، ورغم ذلك فإن جلاله لا يخلو من عذوبة آسرة ... عذوبة تتمثل فى تنفيذه للآجال التى كتبها الله على عباده ... هو عبد مأمور رغم أنه ملك كريم ، ويكمن شرفه فى عبوديته قبل أن يكمن فى ملائكيته .

كان شعورى تجاه ملك الموت يتراوح بين البهت والجلال والخوف والرهبة والاستسلام ... وأيضا الحب ... نعم ... الحب ... وإلا فقل لى بربك كيف يكره المؤمن ملكا من ملائكة الله ... ملكا تجر عباءته إذا سار ملايين الدموع وتدعو لرقة القلب .





(٣٢)

الحب هو الطريق ... هو المركبة والحصان والحبيبة والطريق والرفقة ... وفى كل مخلوق قدر من الجمال ... بل إن فى كل مخلوق كنزا من الجمال إن دققت النظر ، حتى الكلب الأجرب جميل ، تأمل وداعة عينيه وبياض أسنانه فى هذا المرض الذى أصابه .. ليس هناك مخلوق قبيح ... لم يخلق الله تعالى سوى الجمال والعذوبة ... كيف نفسر كل هذا الركام من القبح البشرى الذى تئن تحته قشرة الأرض ؟ ليس هناك غير تفسير واحد ..

نحن مسئولون عن القبح البشرى ... نحن الذين نصنعه ... حين نفتح فى قلوبنا ثغرة ولو صغيرة لإبليس

يولد القبح البشرى على الفور ، ويولد معه العذاب الإنسانى وتولد التعاسة ... والحب أسهل من الكراهية ..

....

تحتاج الكراهية إلى تدبير وتخطيط وجهد ، وتحتاج إلى السير فى اتجاه ضد سير الكون ... وتحتاج إلى النار لإذكائها . أما الحب فلا يكلفك أكثر من فتح أحضانك للكون السابح فى الخلاء الكونى العظيم ..

....

المشكلة كلها أننا فى طفولتنا العقلية نقع أسرى الصور الجميلة ، ثم نتعلم أن الجمال الشكلى ليس هو الجمال النهائى وليس دليلا على وجود الجمال الحقيقى أصلا ..

....

كنت غرا فلم أفهم ... لم أعلم ... لم أعرف ...

كانت تقف فى الشرفة المقابلة لشرفتنا ... أحيانا كان الهواء يطير شعرها فأحس أننى استنشق من البعد رائحة عطرها ... المشكلة كلها كيف يتم الاتصال بها ... لابد من طريقة للاتصال ..

ليس هناك أسهل من الحرف ... سوف أستغل فرصة غياب أبى وأجلس فى مكتبه وأكتب لها رسالة بالقلم الحبر الأحمر ... رسالة أبدؤها بقولى ... حبيبتى ... أكتب إليك بدمى ... تعرف هى اننى أكذب ، وأعرف أنا أننى أكذب ، ويعرف الحبر الأحمر أننى استغله فى الكذب ، لكن ماذا نفعل إذا كان أعذب الشعر أكذبه ، وأعذب الحب أكذبه هو الآخر ... ماذا كان اسمها ... أليست مشكلة أننى لا أعرف اسمها ؟ لقد وقعت فى حبها قبل أن أعرف اسمها .





(٣٣)

الحب البشرى فخ يتجمل للإنسان ، والحروف هى الأخرى فخ يظن الإنسان فيه أنه قد علم . أى أن الحرف حجاب ..

....

أوقفنى فى المحضر وقال لى : الحرف حجاب ... والحجاب حرف .

وقال لى : إن لم تأكل من يدى وتشرب من يدى لم تستو على طاعتى .

وقال لى : إن لم تطعنى لأجلى لم تستو على عبادتى .

وقال لى : اطرح ذنبك تطرح جهلك .

وقال لى : إن ذكرت ذنبك لم تذكر ربك .

وقال لى : الحرف دليل العلم والعلم معدن الحرف .

وقال لى : أصحاب الحروف محجوبون عن الكشوف قائمون بمعانيهم بين الصفوف .

وقال لى : الحرف إبليس . وقال لي : الخارجون عن الحرف هم أهل الحضرة ... وقال لى : الخارجون عن أنفسهم هم الخارجون عن الحرف ..

موقف المحضر والحرف (النفرى)

....

لا قيمة لعلم عقلى صاحبه غير موصول القلب بالله ... نعم قد يكون العلم حجابا عن الحقيقة ... زهو العلم قد يكون حجابا ... لنطرح إذن كل شيء ولنحاول الوقوف على أول باب من أبواب الحضرة .

قال لى : أول باب من أبواب الحضرة موقف المسألة ... أوقفك فأسألك فأعلمك فتجيب .

قال لى : ما النار ؟

قلت : نور من أنوار السطوة .

قال : ما السطوة ؟

قلت : وصف من أوصاف العزة .

قال : ما العزة ؟ قلت : وصف من أوصاف الجبروت .

قال : ما الجبروت ؟

قلت : وصف من أوصاف الكبرياء .

قال : ما الكبرياء ؟ قلت : وصف من أوصاف السلطان .

قال : ما السلطان ؟ قلت : وصف من أوصاف العظمة .

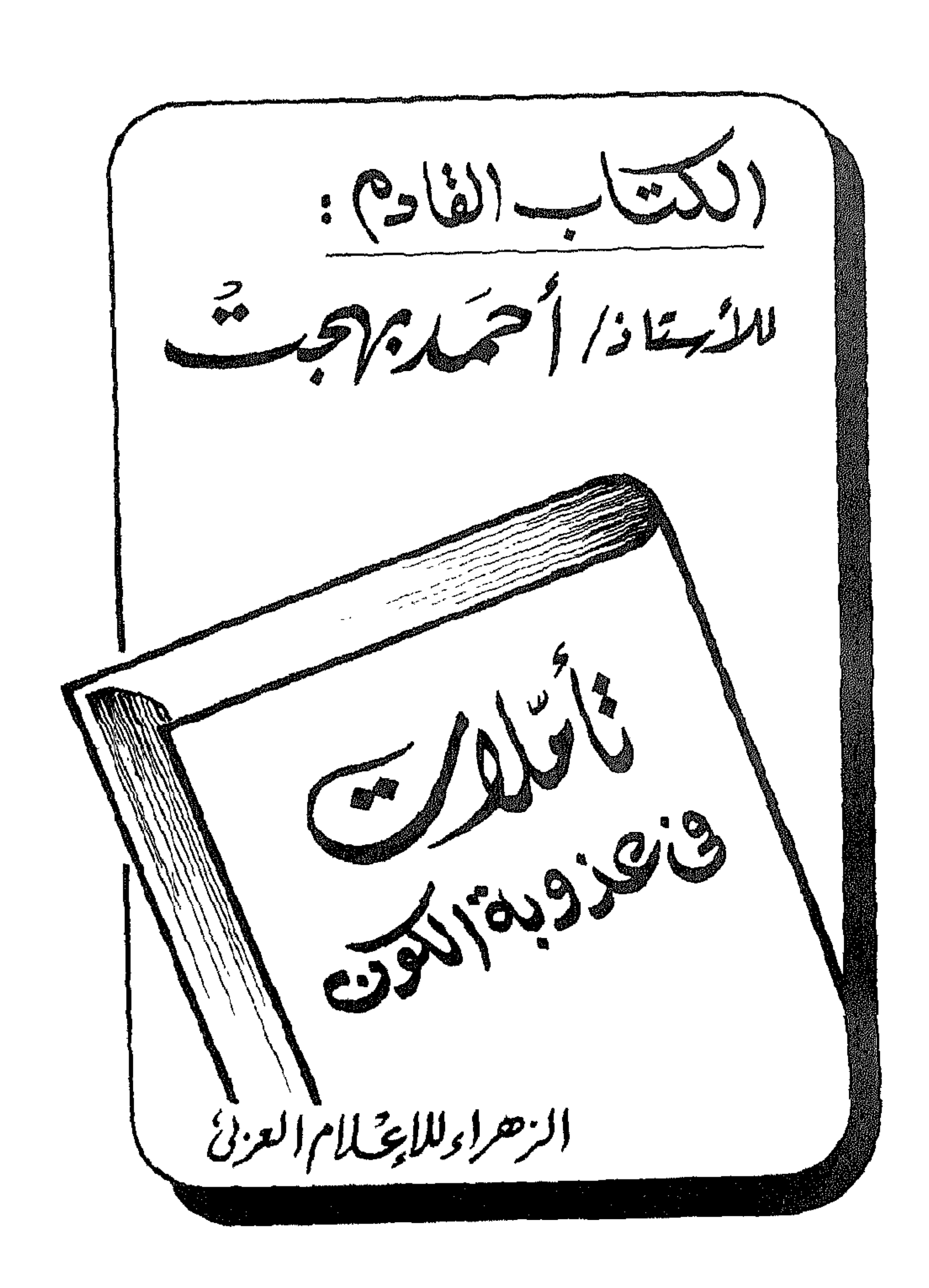
قال : ما العظمة ؟

قلت : وصف من أوصاف الذات .

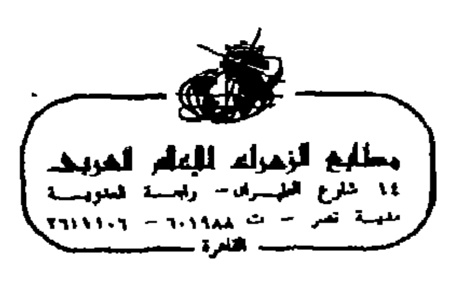
قال : ما الذات ؟

قلت : أنت الله لا إله إلا أنت ..

قال : قلت الحق .


الكتاب القادم :
للأستاذ/ أحمد بهجت
تأملات
في عذوبة الكون
الزهراء للإعلام العربي

رقم الايداع	٤٢٤١ / ٨٨
الترقيم الدولى	٩ - ٩٠ - ١٤٧٠ - ٩٧٧



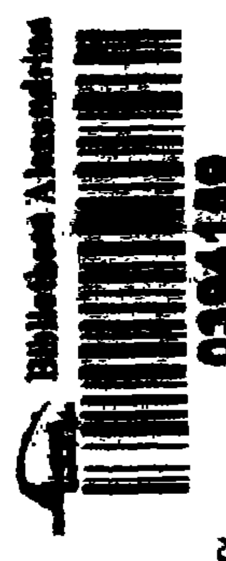


آثرت أن أكتب لكم قصة إنسان في طريقه إلى الله ، وقد بدأت القصة من الأيام الغامضة التي سبقت خلق البشرية ... ثم تعرضت لموقف أخذ العهد ، وموقف سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس . ثم تتبعت الأيام الأولى في الجنة ..

ثم انطفأ كل شيء وآدم يهبط إلى الأرض ، انزوى بطل قصتنا في خلايا آدم ، وظل ميتا حتى ولد ذات صباح شتائي

تتبعت بطل القصة وهو جنين في رحم أمه ، بدأ يستقبل الوعي ويكبر ..

إخترت مواقف من حياة هذا الرجل ، وهي ترفع عنه غطاء الخيمة الترابية وتحاول إعادته إلى المجيد .



الزهراء للإعلام العربي